

القوقاز بين الميدان والسياسة

لم تصمد حتى الآن ثلاث محاولات لوقف النار في ناغورنو قره باغ كثيرا. فالاتفاق الذي وقعه في موسكو وزيرا خارجية أرمينيا وأذربيجان برعاية وزير خارجية روسيا سيرغي لافروف كما اتفاق آخر بوساطة روسية أيضا وثالث برعاية واشنطن لإجلاء القتلى وأسعاف المصابين لم يصمدوا حتى لساعات.

كان واضحا، في عقد المفاوضات على هذه النحو، ان روسيا تسعى لتكون الراعي الوحيد للمفاوضات والناظم الوحيد للأزمة بمعزل عن قدرتها على ترجمة ذلك على الأرض. فكان ان دخلت الولايات المتحدة أيضا على خط النزاع.

الصراع الذي انفجر دمويا في أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠٢٠ عكس تعقيدات في النزاع أكبر من تلك التي كانت قائمة في مطلع التسعينيات. فأذربيجان التي كانت تخرج من تفكك الاتحاد السوفياتي ضعيفة وخسرت حربها مع أرمينيا ومع قره باغ لم تعد كذلك، وتمكنت من إقامة جيش قوي عديدا وعتادا. وقد حصلت على السلاح من دول متعددة مثل روسيا نفسها واسرائيل وتركيا. وربما تعمل باكو على أن تكون قوة إقليمية في القوقاز خصوصا انها تمتلك عوامل هذه القوة من ثروات نفطية وتسليح حديث وموقع يتوسط ايران وروسيا وأرمينيا وتركيا وحوض قزوين. لكن الدور التركي في رسم الأطر الميدانية والسياسية للتحركات العسكرية الأذربيجانية يبقى هو المتحكم بالسلوك الأذربيجاني. إذ رغم صعود القوة الأذربيجانية فإنها تبقى قاصرة عن التحرك الجاد من دون الدعم التركي. وقد استبقت تركيا الحرب على أرمينيا وقره باغ بتنسيق كامل مع باكو وبمناورات عسكرية ما ان انتهت حتى كانت الحرب تبدأ في جهوزية أذرية كاملة وتدفق للمرتزقة السوريين من إدلب عبر تركيا إلى أذربيجان. وإذا كانت الحرب حققت حتى الآن مكاسب ميدانية لبأكو ومن خلفها انقرة، غير ان الصراعات والحروب تقاس في النهاية بنتائجها السياسية. وقد عملت انقرة منذ البداية

على ان تكون مغامراتها القوقازية الجديدة، التي تضيفها لمغامراتها السابقة في سوريا والعراق وليبيا وشرق المتوسط، جزءا من مشروع العثمانية الجديدة وربما " ما بعد العثمانية الجديدة " لجهة بسط الهيمنة وتوسيع شعاع الحضور والنفوذ. وإذا كانت مناطق المغامرات السابقة تقع ضمن الدولة العثمانية البائدة فإن القوقاز كان خارجها وبالتالي قد نكون امام رفع سقف الطموحات التركية لتتجاوز حتى حدود التاريخ العثماني، والعين هذه المرة على القوقاز. الترجمة السياسية للتقدم الميداني الأذري - التركي لم تتحقق بعد. ليس من السهولة على قيصر موسكو الجديد ان يقبل بأن يقاسمه النفوذ في القوقاز، وهي حديقة روسيا الخلفية بامتياز، باديشاه جديد كان قد انهزم في ١٢ حربا مع روسيا ويأتي الآن ليحاول كسر التقاليد الموروثة.

كان الرئيس فلاديمير بوتين يدرك نوايا إردوغان وفتحته جبهة القوقاز في وجه روسيا مستندا أيضا على الدعم الأميركي والإسرائيلي. لذلك عندما بدأت محادثات وزيرى خارجية أذربيجان وارمينيا لوقف النار، استبعدت موسكو تركيا عن المشاركة فيها رغم مطالبة باكو بذلك. الكلمة الأخيرة كانت لبوتين. وكان بذلك يوجه رسالة صدّ لتطلعات تركيا لتتقاسم النفوذ في القوقاز. ولقد فهمت انقرة الرسالة جيدا وانزعجت منها فكان تصريح مولود تشاوش اوغلو وزير خارجيتها من ان أي وقف لإطلاق النار ليس بديلا لمفاوضات حل دائم. وعملت أنقرة على التشويش على جهود موسكو من خلال رفض وقف النار واستمرار الاشتباكات متقطعة تارة وعنيفة تارة أخرى. ولا شك أن معركة القوقاز فتحتها انقرة عبر أذربيجان ليس لتغلق بسرعة بل لتبقى جرحا مفتوحا تستنزف طاقة وجهد موسكو ولتشغلها عن التفرغ لملفات أخرى وللضغط عليها حيث امكن ذلك في ليبيا او سوريا. كذلك لفتح بؤرة توتر على حدود إيران وإرباكها واستنزافها. لذلك فإن معركة القوقاز هذه المرة مختلفة عن سابقتها سواء بالنسبة لأذربيجان او تركيا. وهي الأولى بالنسبة لأنقرة في هذه المنطقة منذ العام ٢٠١٦، بعد توسعاتها في شمال سوريا وتمركزاتها في شمال العراق وتدخلاتها في ليبيا وتهديداتها في شرق المتوسط ومشاغباتها في لبنان، كما هي الأولى لباكو بعد زيادة قدراتها العسكرية.

وإلى أن تحقق تركيا مكاسب سياسية ما في القوقاز او غيرها فإن التوتر والصدام سيستمر بطريقة او بأخرى في القوقاز، بل سينعكس ذلك على ملفات أخرى ولا سيما في سوريا حيث تضغط روسيا عسكريا على تركيا في إدلب تحديدا.

رئيس التحرير